التعبير عن المشاعر من خلال حركات الوجه:
« دراسة في الاتصال غير اللفظي »

د. يحيى علي أحمد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الكويت

ملخص

يتناول هذا البحث كيفية إظهار المشاعر والتوجهات السلوكية المختلفة من خلال حركات الوجه والتركيز هنا دلالة على دلالة الحركات والتعابير ضمن عملية الاتصال التي تتم مواجهته. وبذلك فإن تلك الحركات تعد نمطاً من التواصل غير اللفظي nonverbal communication يوظفه مستعمل اللغة في ظروف وحالات معينة، وفقاً لما يستدعيه سياق الحدث اللغوي. أما مجال البحث فيشمل إلى جانب محيط الوجه أو إطاره مكونات أخرى في الوجه يتم توظيفها للأغراض المذكورة، وهي العينان، الحاجبان، والشفتان. وسيكون هدف البحث الكشف عن القيمة الإتصالية لحركات وتعابير الوجه والأعضاء الأخرى كالعينين والحاجبين والشفتين. ونظراً لتشعب جوانب الموضوع فقد نحت هذه الدراسة نحو التقليل من الأمثلة والتطبيقات حتى لا يطول البحث، آملاً أن تكون مثل هذه التطبيقات والجوانب التفصيلية الأخرى مجالاً لأبحاث مستقبلية.

The expression of emotions through facial gestures A study in nonverbal communication

Dr. Yahia A. Ahmad
Department of Arabic
Kuwait University

Abstract

Face is the most noticeable part of our bodies. When we see someone for the first time, or when we are introduced to someone, we look at his/her face. The image of that person is imprinted into our memory basically through the shape of his face.

The shape of the face reflects its beauty and also the effect of aging. As for the expressions which appear on the face, they might express either positive or negative emotions, depending on the context of interaction. We learn during our social upbringing how to read facial gestures and how to show different emotions through facial gestures. The more experience we gain during our life, the more knowledgeable we become with regard to the effect of facial gestures in the act of communication.

This paper is a chapter in nonverbal communication. It talks about the way we utilize facial gestures to express different feelings and attitudes. What is understood here as facial gestures include, in addition to the periphery of the face, the eyes, the eyebrows and the lips.

The author quotes various examples and incidents within the perspective of the Arab culture, which clearly demonstrate that facial gestures constitute an important channel of nonverbal communication.

١- تمهيـــد

١/١ الوجه أكثر أجزاء جسم الإنسان وضوحاً ولفتاً للنظر، بمعنى أنه العضو البارز الذي يطالعنا حينما ننظر إلى شخص لأول وهلة. وحينما يعرفنا شخص بشخص آخر، فإننا ننظر في وجه هذا الشخص أثناء تعريفه بنا أو مـــصافحتنا له. وينطبع شخص ذلك الإنسان في ذاكرتنا من خلال شكل الوجه، فشكل الوجه يبين جمال الوجه وجاذبيته، ويبين المرحلة العمرية للإنسان، حيـــث إن أثـــر السنين وتقدم العمر بالإنسان يظهر على الوجه. وقد عكس المتنبي هذا المعنى في قوله:

زودينا من حسن وجهك مادا م فحسن الوجوه حال تحول

والوجه يمثل كذلك «كيان الإنسان»، إذ يلاحظ أن هناك مجموعة من التعابير الاصطلاحية في اللغة العربية التى تستعمل فيها كلمة «الوجه» لتكون المعـــادل الموضوعي للإنسان بأكمله، وذلك من باب استعمال الجزء ويراد به الكل. مـــن تلك التعابير :

- يريق ماء وجهه = يستجدي، يسترخص نفسه .
- أغلق الباب في وجهه = الطرد، أو عدم إفساح المجال للمقابلة .
- اغرب عن وجهي = أمر غاضب بالانصراف .
- مرغ وجهه في التراب = أذله .
- مضى على وجهه = أي دون مبالاة ولا انتباه.

وغير ذلك.

أما التعابير المرتسمة على الوجه فتُبين العواطف السلبية أو الإيجابية. فالوجه إذن كتاب مفتوح، ويشكل مصدراً خصباً لنقل الحالات الشعورية، فهو يعكـــس المشاعر الشخصية، ويقودنا إلى الإحساس الداخلي للشخص في لحظة مشاهدتنا له، ويعد بمثابة مرآة نستشعر من خلالها ردود الفعل الطبيعية للشخص تجاه ما يقال له أو يسمعه أو يحدث له. انظر إلى تعابير وجه الشخص الذي تقدم له هدية ثمينة لم يكن يتوقعها. إنها ليست انعكاسات بيولوجية طبيعيـــة، ولكنهـــا ســـلوك مكتسب .

٢/١ في واقع الحال، نحن نتعلم خلال حياتنا كيف نظهر مشاعرنا من خلال تعابير الوجه. ويساعدنا الأساس العصبي- الفسيولوجي للوجه على أن نضيف وظائف تراكمية لتعابير الوجه. ولذلك يكون بإمكان الإنسان أن يستغل وجهه لأن يظهر تعابير السرور والإحساس بالسعادة أو الإرهاق أو الحزن أو غير ذلك من المشاعر. وتظهر هذه المشاعر عادة بشكل طبيعي خلال سياق الأحداث. ولكن إذا أراد الشخص – لسبب ما – أن يتحكم في المشاعر الوجهة أو يحاول إخفاءها، فإن ذلك يحتاج منه إلى بذل المجهود الواعي، والتحلي بالصبر وضبط النفس. وفي حالة عدم تمكن المرء من ذلك فإن هناك جزءاً لا واعياً أو لا إرادياً من تعابير الوجه يظهر في مختلف الحالات الشعورية.

يقول إكمان وفريزن:

«على الرغم من أننا نكون عادة واعين بالتأثيرات الظاهرة على وجوهنا، إلا أنها قد تظهر مع وجود القصد الاتصالي أو عدم وجوده. وعلى نحو مماثل، فإن منع تعابير الوجه من الظهور، أو التحكم فيها، أو إخفاء التأثير (كأن يبدو الشخص باردا، غير متأثر، بينما هو متوتر)، قد يكون شيئا مقصودا أو لا يكون كذلك. ولأنه لدينا تغذية راجعة جيدة حول سلوك وجوهنا، فاننا نكون واعين بما يحدث في اللحظة التى نغير فيها حركات وجوهنا»[١].

ويرى إكمان وفريزن أن هذه المقدرة على التحكم في تعابير الوجه تجعل من الممكن أن ينقل الوجه عدداً من المشاعر في الحالة الواحدة، وليس شعوراً واحداً فقط. ويطلقان على هذه المظاهر الشعورية المتعددة «المشاعر الخليطة» affects blends .

٣/١ ويوجد في نطاق الوجه: العينان والشفتان والحاجبان، كما سيرد فيما بعد. وهذه العناصر يتم توظيفها بأشكال مختلفة للتعبير عن العواطف والرغبات إما مصحوبة باللغة المنطوقة ويكون الهدف عندئذ تعضيد الفكرة، وتقوية العاطفة التي يريد المتكلم أو كل من المتكلم والمستمع التعبير عنها، وذلك حينما يتم تبادل الأدوار فيصبح المتكلم مستمعاً ويصبح المستمع متكلماً. وقد لا تكون الحركات والإيماءات الصادرة من تلك العناصر مصحوبة بالكلام، فيتم توظيفها

عندئذ بمفردها، عن قصد وبشكل واع، بديلاً للغة المنطوقة، وذلك في الظروف والحالات التي لا يتمكن فيها مستعمل اللغة من استخدام اللغة المنطوقة، أو لا يكون محبذاً استعمالها.

٤/١ سيكون هدفي في هذا البحث أن أكشف عن كيفية توظيف حركات تعابير الوجه والعناصر الأخرى المرتبطة بالوجه في التواصل بين الأفراد، وإظهار مختلف المشاعر. وسيكون تناول البحث لدلالات تلك الحركات في حالة استعمالها وسيلة اتصال بديلة للغة المنطوقة. وبذلك فإن هذا البحث يركز على الوظيفة الاتصالية لحركات وتعابير الوجه. وهو يتبنى الأسلوب الوصفي، حيث إن الباحث يصف الحركة ويذكر ما يرتبط بها من دلالات.

٢ ـ أساليب دراسة تعابير الوجه

يتضح من الشرح الموجز الذي ورد في التمهيد أن الوجه له قدرة على التعبير، أي توصيل رسالة ما إذا وظفنا الحركة الوجهية عن قصد. ومن هذا المنظور الاتصالي فالوجه عبارة عن إطار عام، إذ إن هناك أجزاء منفصلة في الوجه هي التي تؤدي الحركات التعبيرية. وضمن هذا السياق من الفهم يمكننا تقسيم الوجه إلى الأجزاء التالية: الشفتان، الحواجب، العينان. وتقسيمنا هذا مبني على الصفة الحركية لهذه الأجزاء، وهو يناسب دراسة الطبيعة الاتصالية التي يؤديها الوجه، حيث أنه يشترط في أي عضو من جسم الإنسان يؤدي حركة اتصالية، قدرة الشخص على التحكم في حركة ذلك العضو. وإلى جانب ذلك فإن هذا التقسيم يجعل من الممكن ذكر جوانب تفصيلية لكيفية أداء كل جزء وظيفة الاتصال أو التعبير الموحي.

١/١/٢ من الدراسات المهمة التي تطرقت لتعابير الوجه، دراسة إكمان وزملائه. Ekman et al. وتكمن أهمية الدراسة في أنها اقترحت أسلوباً عملياً لتسجيل تعابير الوجه أطلق عليه مسمّى «تقنية تدوين سلوك الوجه»[٢] Facial Action Scoring Technique . لقد طور إكمان وزملاؤه نظاماً

تسجيلياً لستة من المشاعر هي: السعادة، الغضب، الاندهاش، الحزن، الاشمئزاز، الخوف. ولتسهيل تسجيل العواطف فقد تم تقسيم الوجه إلى ثلاثة أقسام:

(أ) منطقة الحواجب والجبهة .

(ب) منطقة رموش العين وجسر الأنف.

(ج) منطقة الوجه السفلي وتتضمن الخد، الأنف، الفم، الذقن، الفك.

ويقولون إن هذا التقسيم الثلاثي مبني على الأساس التشريحي الذي يسمح بالحركات المستقلة في كل جزء. وهذا يساعد المراقب على تسجيل الحركة (أو تكويدها) بالنظر إلى الجزء المعين الظاهر في الصورة الفوتغرافية. ويخرج إكمان وزملاؤه ببعض الملاحظات العامة التي قد تفيدنا في التعرف على حركات الوجه والعواطف الكامنة تحتها. من هذه الملاحظات :

- إن منطقة الحواجب لها أقل قدرة على إظهار العواطف، بينما منطقة الوجه السفلي تتميز بأنها أكثر قدرة على ذلك .
- إن أكثر العواطف تعقيداً هي «الحزن»، حيث يمكن لتلك العاطفة أن تظهر في أكثر من مكان وهي بذلك تخدع المشاهد العادي. والأماكن التي تظهر فيها تلك العاطفة هي: الحواجب والجبهة، العين والرموش، الوجه السفلي .

٢/١/٢ ومن قراءتنا للجدول الوارد في صـ ٥١ من البحث المذكور، فإننا نستطيع أن نقرر أن بعض المناطق في الوجه تزودنا بمعلومات أكثر، فتكون بذلك أقدر من غيرها في الإنباء عن بعض المشاعر، وذلك على النحو التالي:

(١) منطقة الوجه السفلي والعين هي أحسن منطقة لإظهار السعادة.

(٢) العيون أوضح ملامح الوجه لكشف الحزن.

(٣) منطقة العين والوجه السفلي تخبرنا أكثر عن الاندهاش

(٤) الغضب يمكن كشفه من خلال تعابير الوجه السفلي بنسبة١٠٠%، والحواجب والجبهة بنسبة٨٠%. أما العين فتكشف الغضب بنسبة ٥٠%[٣].

(٥) منطقة الوجه السفلي هي أحسن مكان نتبين فيه شعور الاشمئزاز.

(٦) تعكس منطقة العين الخوف. ولذلك فنحن نعطي ثقلاً ملحوظاً لهذه المنطقة في التعرف على الخوف.

وعلى الرغم من أن هذه الملاحظات مستمدة من واقع البحث الميداني، فإن إكمان وزملاءه يقررون أن هناك اختلافات فردية طفيفة في كيفية إظهار تلك العواطف، وربما يعود ذلك في نظرهم إلى التركيب الخلقي لعظام الوجه، والعضلات، واختلاف نسب التراكمات الشحمية في الوجه، إلى جانب العوامل النفسية. وهذه الملاحظة صحيحة فالأمر يتعلق بالصفات الشخصية. وقد وجدت في دراسة وليامز وتولخ[٤]. ما يؤيد ذلك، فحينما طلب الباحثان من ٥٠ طالباً جامعياً إظهار أو أداء عشر عواطف مختلفة باستعمال تعابير الوجه، فقد وفق جميع الطلبة في إظهار العواطف المطلوبة، ولكن ظهرت اختلافات فردية ملموسة منشؤها اختلاف شخصية كل طالب .

٢/٢ وهناك نهج آخر اتبعه الباحث هنري سيفورد (1981) Seaford، حيث بنى وصفه لحركات الوجه على أساس تقلصات عضلات الوجه. وقدم شكلاً توضيحياً عبارة عن رسم يدوي للوجه موضحاً فيه أسماء عضلات الوجه (وكلها لاتينية الأصل). وقام بتحليل مجموعة من الصور الفوتوغرافية للوجه بذكر اسم العضلة أو العضلات المتداخلة معها، والتي ساهمت في تشكيل الحركة. وهذا النهج يعتمد على أساس تشريحي. ويكون القارئ مجبراً على معرفة الأسماء العلمية لعضلات الوجه حتى يتلمس طريقه إلى الوصف. لذلك فإن تطبيق هذا النهج يكاد يقتصر على من كان ملماً إلماماً تاماً بالجانب التشريحي. هذا إلى جانب أنني حينما تمعنت في بعض الصور التي شرحها، لم أكن متأكداً من أن تلك العضلة بالذات وليست غيرها هي التي شكلت تلك الحركة، حيث أن الصورة غامضة أو غير واضحة من المنظور التشريحي، ولكنها واضحة من حيث الإيحاء الدلالي. ولست متيقناً بعد ذلك ما إذا كانت هذه التقنية مناسبة لشرح كل العواطف التي يستطيع الوجه الإنساني التعبير عنها.

٣/٢ من الأساليب التى برزت في دراسة تعابير الوجه ذلك النهج الذي سمي (نظام تشفير سلوك الوجه)[٥] Facial Action Coding System وهو أسلوب يتم فيه التعرف على الشعور أو العاطفة من خلال صورة فوتغرافية أو شريط فيديو يبين سلوك الوجه بالأداء البطيء. ويتولى الباحث في مثل هذه الحالات تزويد المشارك في البحث بقائمة تضم عدداً من العواطف بحيث يختار منها العاطفة التى تعبر عنها الصورة .

وهناك نهج آخر ضمن «نظام تشفير سلوك الوجه»، وهو أن يقوم الشخص المشارك في التجربة بإظهار العاطفة المطلوبة، أي أن يقوم بالتعبير من خلال حركات الوجه عن العاطفة التى يطلبها الباحث[٦] .

٤/٢ إن ألفتنا بالوجه تساعدنا على التعرف على المشاعر. فالشخص الذي نعرفه ونشاهده باستمرار يكون وجهه مألوفاً لنا، ومن ثم يصبح من السهل أن نتعرف على أية مشاعر مختلفة تظهر في وجهه. ولعلك صادفت موقفاً عندما يراك صديقك وينظر في وجهك ملياً ثم يقول لك قبل أن تتكلم: «يبدو أنك متضايق اليوم. هل حصل لك شيء ؟». فتقول إذا أردت الاحتفاظ بالتفاصيل لنفسك: «لم أنم البارحة إلا قليلاً». ويدلنا هذا على أنه من السهل أن نتعرف على المشاعر الوجهية إذا كانت لدينا خلفية كافية أو معلومات كافية عن صاحب ذلك الوجه .

ونستطيع كذلك التعرف على المشاعر الوجهية من خلال مقارنة الوجوه، أو مقارنة حالة بحالة أخرى. فإذا رأيت ستة أشخاص جالسين، خمسة منهم يبدون متجهمي الوجه وواحد يبدو غير ذلك، يصبح في هذه الحالة من السهل أن نتعرف على الوجه الذي يعكس شعوراً مختلفاً. وضمن فكرة المقارنة بين الوجوه، أو الاستدلال على حالة شعورية من واقع حالة أخرى، قام كلاين، (١٩٥٦) Cline بتجربة حيث عرض ثلاث مجاميع من الصور على عدد من الدارسين، وطلب منهم استخلاص المشاعر التى يعكسها كل وجه. انظر الشكل رقم (١).

المجموعة (١)

المجموعة (٢)

المبتسم – العابس

المجموعة (٣)

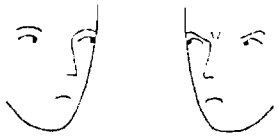

المجموعة (٤)

العابس –الكالح

المجموعة (٥)

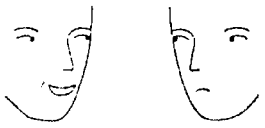

المجموعة (٦)

الكالح – المبتسم

شكل رقم (١)

« ثلاث مجموعات لمشاعر وجهية »

وقد كانت الملاحظات على الشكل التالي:

(١) مقارنة الوجه العابس بالوجه المبتسم

يبدو الوجه المبتسم وكأنه يتباهى بالانتصار، أو الإنجاز.
والوجه العابس يشعر بالإحراج وخيبة الأمل.

(٢) مقارنة الوجه العابس بالوجه الكالح

يحاول الوجه الكالح أن يغير رأي الوجه العابس، أو يقنعه بأن يصحح خطأه. يبدو الوجه الكالح منزعجاً من الوجه العابس في هذه الحالة. ويمكن أن يمثل الوجه الكالح الوالد حينما ينادي ولده المخطئ، أو رئيس مركز العمل يستدعي الموظف ليحاسبه على خطأ ارتكبه .

(٣) مقارنة الوجه الكالح بالوجه المبتسم

الوجه الكالح يشعر بشيء من الغضب تجاه الوجه المبتسم. يبدو الوجه المبتسم ودوداً ومسالماً، وربما يحاول تقديم المشورة أو تسوية بعض المشاكل التي يعاني منها الوجه الكالح.

ونجد في جميع هذه الحالات أن المقارنة لعبت دوراً بارزاً، فإن الحالة الشعورية البادية على أحد الوجوه قد أثر على تفسير الحالة الشعورية للوجه الآخر. وحينما واصل الكاتب عرض الصور بشكل منفرد فقد حصل على ملاحظات أخرى.

٥/٢ وإلى جانب ما تقدم ذكره فنحن نصف تعابير الوجه على أساس آخر مختلف. ففي دراسة حملت عنوان (التواصل من خلال تعابير الوجه) وظف فيها الباحثان وليامز وتولخ Williams & Tolch (1965) تقنية الاختلافات الدلالية semantic differential، وقاما بعرض مجموعة من الصور على عدد من المشاهدين لإبداء انطباعاتهم حولها. وبعد دراسة ملاحظات المشاهدين خلصا إلى أننا كثيراً ما نميل إلى التعرف على تعابير الوجه، أو وصف الوجه، من خلال نوعين من المصطلحات :

(١) النوع الأول يتسم بشيء من العمومية، ويكون مبنيا على التقدير الشخصي أو التخمين، مثل: طيب / غير طيب، حنون / قاسي، جميل / قبيح، شاكر/جاحد.

(٢) النوع الثاني يحمل بعداً حركياً (أو صفة دينامية)، فقد نصف الوجه بأنه نشيط / خامل، جامد / متحرك (حيوي)، مثير / ممل.

ويبدو لي أن كلا النوعين من هذه المصطلحات عبارة عن أحكام ذوقية انطباعية متغيرة، فهي مسألة درجات، ولا يمكن اعتبارها أحكاماً نهائية قاطعة. لذلك فإن قبولها يكون متفاوتاً تبعاً لاختلاف الأذواق والخبرات والثقافات. فقد يعتبر (س) أحد الوجوه قاسياً، بينما يعتبره (ص) وجهاً عادياً، وهكذا. وحينما نتفق على الوصف فإن عوامل كثيرة تكون قد تدخلت في الأمر.

٣ ـ انطباعاتنا عن الوجوه

١/٣ يعد الوجه عضوا فاعلاً ومهماً من حيث القدرة على التعبير عن المشاعر والانفعالات، كما مر بنا. والملاحظ أننا في المجتمعات العربية حينما نتحدث عن الأشخاص نقول إن فلاناً «وجهه بشوش دائماً» أو «عبوس دائماً» أو «وجهه سمح»، أي أننا نصدر حكماً على شخصيته من خلال تعابير الوجه التي نحبها أو لا نحبها. بل إننا نذهب إلى حد أبعد من ذلك فنصف مشاعر الشخص من خلال تعابير وجهه، فنقول مثلاً: إنه فرح، غضبان، متكدر، متجهم، غامض. وحينما ندعو لشخص نقول: «بيض الله وجهك»، وبياض الوجه في هذا الدعاء يحمل معاني السرور والبهجة وحسن المنقلب. أما الدعاء على الشخص فيكون عكس ذلك: «سوّد الله وجهك»، والسواد هنا شيء معنوي يتعلق بالخزي وسوء المنقلب. وقد استمد الوجدان الشعبي هذه الأوصاف من القيم الدينية: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ [الزمر: ٦٠]. وهكذا فإن مشاهد الوجوه يوم القيامة تكون ماثلة أمام ناظري المسلم من واقع هذه الأوصاف القرآنية. وهناك أوصاف

أخرى ترد في القرآن الكريم، كلها تؤكد المشاعر من خلال صور الوجوه يوم القيامة. ونذكر فيما يلي – على سبيل التمثيل – بعضاً من هذه الأوصاف .

تعابير وجهية ايجابية	تعابير وجهية سلبية
وجوه ناضرة [القيامة: ٢٢] وجوه مسفرة [عبس: ٣٨] وجوه ضاحكة مستبشرة [عبس: ٣٩] (الوجوه هنا: مضيئة، متهللة، مسرورة) وجوه ناعمة [الغاشية: ٨] (الوجوه هنا: ذات بهجة وحسن)	وجوه باسرة [القيامة: ٢٤] (أي: شديدة العبوس) وجوه خاشعة [الغاشية: ٢] (أي: ذليلة) وجوه عليها غبرة [عبس ٤٠] (أي: قاتمة متكررة)

شكل (٢) تعابير الوجه كما بينها القرآن الكريم

إن هذه الصور التي رسمها القرآن بدقة وإحكام عبارة عن أوصاف مجازية من المنظور البلاغي. ولكن الدلالة المستخلصة منها تعكس مشاعر إنسانية يمكن الاستدلال عليها عبر الثقافات، لأن مشاعر الخوف والفرح والغضب، والتجهم، والسرور ... مظهر عالمي، أي أن بإمكان الأشخاص في مختلف الثقافات إظهار مشاعرهم – كالتي ذكرناها – من خلال تعابير وجوههم. وقد قام إكمان وفريزن Ekman and Friesen (1971) حيث سردا على مسامع عدد من الأشخاص الأميين، الذين ينتمون إلى غينيا الجديدة، وعاشوا بمنأى عن الثقافة الغربية، مجموعة من القصص القصيرة، تتضمن كل قصة عاطفة واحدة. والعواطف التى شملتها القصص هي: السعادة، الحزن، الغضب، الاندهاش، الاشمئزاز، الخوف. وبعد ذلك عرضا عليهم عدداً من الصور لوجوه أوربية (تظهر الوجه والرقبة فقط) لكي يختاروا من بينها الصورة (أو الصور) التي تمثل العاطفة التي ورد ذكرها في القصة. وكان الهدف هو دراسة قدرة الأفراد في ذلك المجتمع على التعرف على مشاعر الأشخاص من خلال تعابير وجوههم. وقد استطاع أولئك

الأميون – الذكور منهم والإناث على حد سواء – الاستدلال على المشاعر من خلال صور الوجوه، فيما عدا عدم قدرتهم على التمييز بين تعبير الخوف وتعبير الدهشة. وخلص إكمان وفريزن إلى أن بعض التعابير الوجهية ترتبط ببعض العواطف. وهذا مظهر عالمي. وتأكيداً لذلك، فقد قاما بتطبيق التجربة بشكل معكوس، حيث التقطا مجموعة من الصور تمثل وجوه أفراد من إحدى القبائل في غينيا الجديدة. وتمثل هذه الوجوه عواطف مختلفة. وعرضا هذه الصور على طلبة جامعيين أمريكيين. وقد تمكن الطلبة الأمريكان من التعرف على المشاعر من خلال الصور بشكل مباشر. وهذا يؤكد أن سلوك التعبير من خلال الوجه شيء موجود وثابت في كل الثقافات. ونجد مصداقاً لذلك قولهﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٧] وبإمكان أي مسلم مهما اختلفت ثقافته المحلية أن يطبق هذا التوجيه، فالوضع هنا عبارة عن سلوك يفعله المرء من خلال تعابير الوجه، وهو أن يبدو لطيفا ودوداً. وهذا مظهر عام يستطيع الإنسان أن يبدو به إذا أراد ذلك. وفي مقابل ذلك هناك الوجه المكفهر الذي تبدو عليه أمارات الحسرة والغم والكدر. ونجد نموذجاً رائعاً لذلك في قوله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم﴾ [النحل: ٥٨]، فليس سواد الوجه في مثل هذه الصورة سوى المشاعر السلبية المتمثلة في ظهور أثر الحزن والغم على الوجه نتيجة لحصول شيء يكرهه المرء. والمشهد هنا أيضاً عبارة عن سلوك ولكنه سلوك سلبي. وفي كلا المشهدين نجد أن صورة الوجه هي التي تقودنا إلى الفهم الدلالي الصحيح للعبارات، وخاصة إذا ربطنا بين الدلالة الظاهرية والدلالة الباطنية التي يفسرها كون الوجه معادلاً موضوعياً للإنسان بأكمله.

٢/٣ اتضح لنا مما سبق ذكره أن الوجه مصدر للتعبير غير اللفظي، وأننا كثيراً ما نقرأ المشاعر وتلجأ إلى إظهارها من خلال تعابير الوجه. ولكن، هل المشاعر الوجهية واضحة دائماً تمام الوضوح؟ الأمر يبدو كذلك في أغلب الأحوال، ولكنه يعتمد كذلك على القدرة الشخصية، والخبرة الشخصية لصاحب الوجه ولقارئه أيضاً. فهناك أناس أقدر من غيرهم على التحكم في مشاعرهم، بما

في ذلك التلاعب بتعابير الوجه. وقارئ الوجه قد يكون متمكناً وخبيراً وذا نظر ثاقب بحيث يستطيع تبين الملامح، وقد لا يكون كذلك. وهناك أيضاً عنصر الألفة بالوجه كما سبق أن ذكرنا. هذا إلى جانب بعض العوامل النفسية والطبيعية. ويساهم كل ذلك في إظهار الاختلافات الفردية. ولكن تبقى الحقائق العامة واضحة، وهى أن الوجه له قدره على إظهار مختلف المشاعر.

٤ ـ سلوك العين

١/٤ مدخل

هل سمعت مثل هذه العبارات: «كان ينظر إليك طوال الوقت نظرة إعجاب»، «عنه حارة»، «يكاد يأكلها بنظراته»، «عين ما صلت على النبي»، «أصابته عين»،

وفي عينيك أسرار حيارى تكذب ما تحاول أن تقوله

(عمر أبو ريشة)

إن مثل هذه العبارات الإخبارية والمجازية تبين لنا أننا نعي ما للعين من تأثير، فنحن نستعملها كوسيلة من وسائل الاتصال والتأثير، وكذلك كوسيلة لاستخلاص المعلومات والمشاعر، لأن حركة العين واضحة. وأقصد بذلك أن الشخص يعرف تمام المعرفة إذا كنت تديم النظر إليه، أو أنك تختلس النظر إليه فقط. أضف إلى ذلك أن شكل العين من الأشياء التى تلفت النظر في الوجه، ولذلك فإن الجرائد تلجأ عند نشر صور بعض المقبوض عليهم في قضايا أمنية إلى تسويد العينين رغبة في عدم التشهير. وهناك من الناس من يعتبر العين أجمل شيء في الوجه، فإذا كانت العيون جميلة فذلك الشخص جميل. ولذلك فإننا نجد أن الشعراء في كل اللغات والعصور يتغنون بجمال العيون وسحرها وقوتها على التعبير الموحي. ولا يوجد من بيننا من لا يحفظ بيتاً أو بيتين من الشعر حول ذلك، ابتداء من قول الشاعر العربي القديم: [٨]

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا، ثم لم يحيين قتلانا

وانتهاء بقصيدة (أنشودة مطر) لبدر شاكر السياب التي مطلعها: [٩]

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء كالأقمار في نهر .....

ولكن الذي نود التركيز عليه هنا هو توظيف العين في عملية الاتصال، فحركة العين، أي كيفية النظر، يمكن أن تقول الكثير من الأشياء وقديماً قال الشاعر العربي: [١٠]

متى تك في عدو أو صديق تُخبِّرْكَ العيونُ عن القلوب

إن مجال التحدث عن سلوك العين واسع جداً، واستدلالاً على ذلك يكفي أن نعرف أن دراسة كلاينكه (١٩٨٦) Kleinke التي ظهرت سنة ١٩٨٦ قد أوردت ثلاثمائة وخمسين بحثاً حول مختلف الجوانب التي تتعلق بسلوك العين. ويمكننا إضافة العشرات من المراجع الأخرى حول الموضوع. ويدلك ذلك على ثراء هذا الموضوع وتعدد جوانبه، ولذلك فسأتجنب الدخول في التفاصيل لأنها بحاجة إلى كتاب بأكمله، وأكتفي بذكر الوظائف التالية للنظر مما لها علاقة مباشرة بعملية الاتصال، وهو ما يهمنا توضيحها في هذا البحث.

٢/٤ وظائف النظر

١ – تدل حركة العين على الحياء، أو قد تدل على الاندهاش، أو قد تدل على عدم الإعجاب بالشيء، أو قد تدل على الشعور بالقلق أو الحزن. ونحن نعلم أن العين ترمش في الظروف الاعتيادية حوالي ١٠٠ مرة في الدقيقة، وذلك بهدف حماية العين من الجفاف. أما في حالات الشعور بالاضطراب والقلق، أو حالة اختلاق قصة للتملص من الإخبار بالحقيقة، فإن العين ترمش بمعدل أعلى. وعلى النقيض من ذلك، فإن الشخص الذي يكون في حالة تفكير أو تأمل فهو يرمش بشكل أقل.

٢ – يعد النظر gaze ذا أهمية كبرى في السلوك الاجتماعي، فنحن نوظفه لتحقيق غرضين.

(أ) جمع المعلومات عن الأشياء المحيطة بنا وعن الأشخاص، واستخلاص معنى التعابير الظاهرة. على الوجوه خاصة .

(ب) نقل رسالة للطرف الآخر من خلال طريقة النظر. ولذلك فإن للنظر مغزى بالنسبة للمتلقي لأنه يستخدمه للحصول على مؤشرات دلالية (أي يعد بالنسبة له إشارة يستخلص منها مختلف الدلالات signal). وللنظر مغزى بالنسبة للمرسل كذلك (فهو بالنسبة له قناة تعبيرية channel يوظفها بشكل مدروس وفقاً للرسالة التي يريد إيصالها للطرف الآخر).

٣ – في حالة التكلم ينظر المتكلم بشكل أقل إلى المستمع، أما في حالة الاستماع فإن المتكلم ينظر بشكل أطول. ويذكر كندون Kendon(1967) أن هناك اختلافات فردية في ذلك، فهناك أناس ينفقون ٦٥% من وقت الكلام في النظر، بينما أناس آخرون ينفقون مجرد ٢٠% من وقت الكلام في النظر. ويزودنا آرغايل (١٩٨٨) Argyle ببعض الإحصائيات عن النظر خلال التحدث، وفيما يلي نموذج لإحصائيات حول نسب النظر لشخصين يتحدثان حول موضوع محايد:

النظر الشخصي	٦٠ %
النظر أثناء الاستماع	٧٥ %
النظر أثناء التحدث	٤٠ %
طول فترة اللمحة (النظرة الخاطفة)	٣ ثوان
تبادل النظر	٣٠ %
طول فترة النظر المتبادل	١ ½ ثانية

وهذه الأرقام نسبية، ونتوقع بطبيعة الحال أن تكون هناك اختلافات تبعاً للشخصيات المشاركة في الحديث. وهذا الشيء يعتمد في نظري على التآلف والاندماج في موضوع الحديث، ومستوى العلاقة بين المتحاورين، وشعور

الشخص تجاه محدثــه، وطبيعة موضوع الحديث. وإذا كانت هذه الإحــصائيات تؤكد أن المستمع ينظر إلى المتكلم لفترة أطول من نظر المتكلم إلى المــستمع، فإنه يهمنا أن نؤكد من جانبنا أن النظر أثناء الحديث مهم لكلا الجانبين لأنه يخدم غرضين اثنين :

(أ) يعتبر مصدراً للتغذية الراجعة Feedback حيث يعــرف مــن خلالــه الشخص رد فعل الآخر تجاه ما يسمعــه. والنظر في هذه الحالة يــسير جنباً إلى جنب مع الجانب السمعي، حيث يمكــن لكــل مــن المتحــدث والمستمع ملاحظة تعابير الوجه، والتغيرات التي تحصل لهذه التعابير تبعاً لتطور موضوع الحديث. ويرى آرغايل وزملاؤه (١٩٨١)Argyle et al أن هذه الوظيفة للنظر يمكن تمييزها في الحالة التي يتواصل فيها الشخص مع مستمع أو مجموعة مستمعين ضمن الــدائرة التلفزيونيــة الأحاديــة المسار، بحيث إن المتكلم يرى المستمعين وهم لا يرونه. ولو كان الوضع العكسي حاصــلاً، أي أن المستمعين يرون المتكلم بينما المتكلم لا يراهم، فإن الذي يرى في هذه الحالة يميل إلى النظر أكثر ممــن لا يــرى، لأن التغذية الراجعة تكون معدومة بالنسبة لمن لا يرى .

(ب) يشعرنا بأننا نتكلم بشكل طبيعــي، ففــي تجربــة قــام بهــا آرغايــل وزملاؤه[١١]، تم التحكم في مقدار رؤية أحد المتحــاورين للآخــر. لقــد أصبحا في غاية الضيق عندما تم تقليص الرؤية، حيث لــم يكــن مــن الميسور عندئذ النظر إلى تعابير الوجه أثناء الحديث. وحينما طلبوا مــن أحد الطرفين أن يواصل النظر طوال وقت الحديث، فلا يبعد عينه إطلاقاً عن وجه محدثه، فقد شكل هذا الوضع عبئاً ذهنياً عليه، وشعر بأنه يتكلم في وضع غير طبيعي. وتفسير ذلك أننا لا ننظر إلى بعضنا أثناء الحديث طوال الوقت، بل «نريح العين» بين فترة وأخرى بالنظر إلى أشياء غير وجه المتكلم، أو المستمع.

٤ – حينما يكون الشخصان بعيدين فإن النظر يكون بينهما أكثر. أما حينما تقترب المسافة بين الشخصين، وخاصة بين الذكر والأنثى، إلى حد ١٠ أقدام، فإن النظر يقل بشكل ملحوظ، «لأن النظر بعد هذه المسافة بالنسبة للأنثى يعتبر خارج نطاق التفاعل الاجتماعي» [١٢]. ولكن يتواصل النظر إذا كان هناك هدف ما، مثل جمع المعلومات مثلاً (دراسة ملامح الشخص عن قرب، نوع الملابس والتفاصيل اللونية فيها الخ ....)

٥ – ينظر المتكلم بعيداً عن المستمع حينما يصل إلى مرحلة ينقطع فيها الكلام، أو يتوقف بهدف البحث عن كلمة مناسبة، أو التفكير في صياغة الفكرة. وحينما يواصل المتحدث حديثه بعد ذلك فإنه ينظر إلى المستمع كمؤشر لانتهاء فكرة ما، أو للتأكد من يقظة مستمعه ومتابعته له، (1967) [١٣].

٦ – إذا نظر المستمع بعيداً عن محدثه فإن ذلك قد يحمل أحد المدلولات التالية:

(أ) يريد المستمع أن يعبر عن الضيق أو الملل.

(ب) ربما يجد المستمع كلام محدثه صعب الفهم، أو يحتاج إلى تفكير جيد لاستيعابه .

(ج) يريد المستمع أن يبين بأنه لم يعد يسمع شيئاً جديداً، وخاصة إذا كان كلام المتحدث متقطعاً أو يتضمن وقفات كثيرة.

٧ – حينما يستغرب المستمع من الكلام الذي يسمعه فإنه ينظر إلى المتحدث. وقبل أن يقاطع أحد الطرفين حديث الآخر يكون هناك نظر.

٨– يقرر كندون [١٤] أن المتحدث يلجأ إلى النظر إلى مستمعه مع بداية الجملة، حيث وجد عند تحليل ٩٥ جملة أن أكثر من ٧٠% من هذه الجمل بدأت بالنظر. وظهر له أن الجمل التي أنهاها المتكلم وهو ينظر نظراً مطولاً إلى المستمع فإن ٢٩% منها لم تكن متلوة بأية إجابات أو مداخلات من قبل المستمع. ولذلك فإن المتحدث يلجأ إلى النظر إلى مستمعه قبل نهاية الجملة لكي يعرف ما إذا كان المستمع يريد أن يأخذ دوره في الحديث، ولكي يعرف كذلك تأثير كلامه عليه.

٩ – يختلف الأشخاص في كمية النظر ونسبة النظر، فمثلما يكون لكل شخص أسلوبه في الكلام، فكذلك يكون له أسلوبه في النظر والتحديق. وفي بعض الأحيان تلعب الظروف الثقافية والعادات الاجتماعية دوراً في كيفية توظيف النظر.

يذكر آرغايل وكوك [١٥] أن هناك قواعد واضحة حول استخدام التحديق في العديد من المجتمعات:

- فهنود قبيلة نافاهو Navaho يتعلمون ألا ينظروا بشكل مباشر إلى شخص آخر أثناء المحادثة.
- من عادات الهنود من قبيلة ويتوتو Wituto، وقبيلة بورورو Bororo (في أمريكا الجنوبية) أن كلا من المتكلم والمستمع ينظر إلى أشياء خارجية خلال المحادثة (أي ليس إلى الوجه والعيون). أما راوي الحكايات فإنه يدير ظهره لمستمعيه، ويخاطب جدار الكوخ.
- في اليابان لا ينظر الناس إلى بعضهم كثيراً، ولكن الأطفال يتعلمون على أن ينظروا إلى الرقبة. وليس إلى العين والوجه مباشرة.
- العادة المتبعة في نيجيريا أن الشخص ذا المنزلة العالية أو الكبير في السن يجب ألا ينظر إلى عينه مباشرة أثناء المحادثة.
- من عادة أفراد قبيلة (لوو) Lou في كينيا أن الزوج وأم الزوجة يجب أن يديرا ظهرهما لبعضهما حين يتكلمان.
- يرتبط النظر المطول عند الهنود والأفارقة والآسيويين بالتهديد وعدم الاحترام والتعالي والإهانة.

أما النظر القليل (أي الذي يكون لفترة قصيرة جداً) فإن العرب وسكان أمريكا الجنوبية يفسرونه على أنه يعني عدم الاحترام، أو عدم الاهتمام.

- من عادة اليونانيين أن ينظروا إلى الناس في الأماكن العامة. ويذكر آرغايل أن بعض أصدقائه من اليونانيين أخبره أن اليوناني الذي يسافر

إلى دول أوربية أخرى يشعر بأنه مهمل أو منبوذ لأن الناس لا ينظرون إليه بتلك الكيفية التى تعودها.

٣/٤ أنـــواع النظـــــر

نستشف من مجمل الملاحظات التي ذكرناها فيما سبق أن النظر نـــوع مـــن الاتصال، حيث إن المرء يستطيع توصيل فكرة أو استخلاص فكرة من خـــلال سلوك النظر أو التحديـــق. ولكن النظر أنواع أو درجات، فهو يختلف سواء من حيث الكيفية أو الفترة الزمنية، وذلك بناء على الرسالة التي نريد توصـــيلها، أو المعنى الذي نريد أن نستخلصه، أو المعلومات التي نريد تبيّـــنها. وتبعاً لـــذلك، فإن تصنيفنا الذي سيرد ذكره يميز بين الأنواع التالية من النظر:

١/٣/٤ النظرة الخاطفة، أو العابرة glance

نوظف هذا النوع من النظر حينما نـــسير فـــي الممـــرات أو الأســـواق أو الطرقات، وذلك بهدف تقدير اتجاه الشخص المقبل نحونا لكي نواصـــل ســـيرنا ويواصل ذلك الشخص سيره فلا نصطدم ببعضنا. إن هذا النمط من النظر عبارة عن اتيكيت اجتماعي أو سلوك عام نتعلمه «لإفساح الطريق»، ولذلك فإن الرسالة التى ينقلها الواحد منا للآخر ضمن هذا النمط من النظر هي بكل بساطة إننـــي أشاهدك وتشاهدني، فاطمئن فلن اصطدم بك عن عمد .

واستعمال النظرة الخاطفة تكون كذلك بين المحبين في البيئات المحافظة، أو في الظروف غير المواتية لإدامة النظر. ويعكس عمر بن أبي ربيعة هذا الوضع بقوله: (١٦)

أشارت بطرف العين خشية أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

وقد تتألف النظرة الخاطفة من عدة نظرات، ولكن الفترة الزمنية لكل نظـــرة تكون قصيرة جداً. ويدخل ضمن النظرة الخاطفة ما يسمى بالنظرة الأولى، وهى اللمحة العابرة التي نعاين بها الأشياء التي نصادفها أمام ناظرينا. ونوظف هـــذا النوع من النظر كذلك حينما نكون جالسين في قاعات الاســـتراحة والانتظـــار. فنظراتنا في مثل هذه الأماكن تكون قصيرة عابرة. ولكن يبدو أن الأمر يختلف

تبعـاً للطبقة الاجتماعيـة ولعامل الجنس والسن والمكان (البيئة الاجتماعيـة). فنجد – مثلا – أن المرأة في أمريكا الجنوبية، على نحـو مـا يـذكر كـاري Cary (1978a)، تطيل النظرة الأولى أكثر مما يفعله الأمريكي، الأمر الـذي يوحي للأمريكي بأن تلك المرأة مهتمة به ! وطريقة نظر الشاب غيـر طريقـة نظر الكهل. والوضع في المدينة الكبيرة المزدحمة بالسكان ليس مثل الوضع في القرية الصغيرة التي يعرف فيها أغلب الناس بعضهم .

وقد تكلم غوفمان[١٧] عن أسلوب الأمريكان في النظر أثنـاء سـيرهم فـي الشارع، فذكر أن كل شخص ينظر إلى الآخر حتى تصبح المسافة الفاصلة بينهما حوالي ٨ أقدام. عندئذ يسحب كل طرف نظره، أو ينظر إلى أسفل بقصد تجنب التحديق. وقد أطلق على هذه العملية مصطلحاً لطيفاً هو «إخفات ضوء عيوننا» dimming of our lights ويقصد به تلطيف أثـر النظـر. ويبـدى كـارى Cary (1978a) تحفظه على جوانب من ملاحظات غوفمان، حيث يذكر أنـه وجد في دراسته الميدانية لهذه الظاهرة أن عابري السبيل يواصلون النظر إلـى بعضهم، ثم يريحون النظر.وعند لحظة العبور تكون هناك نظرة خاطفة للتأكـد من عدم الاصطدام.

ومن واقع رصدي لهذه الظاهرة في المجتمع الأمريكي أثناء إقـامتي فيـه، لاحظت أن كلا الرأيين صحيح، ومن ثم فإنه يبدو لي أن اختلاف الملاحظـات عند الباحثين مرده إلى توظيف متغيرات مختلفة.

٢/٣/٤ النظرة المتفحصة أو المطولة (التحديق) Gaze

وتكون فترة النظر أطول، ولذلك فالنظر في هذه الحالة عبارة عن تحـديق. ونوظف هذا النمط من النظر لمعرفة التفاصيل عن الشخص: شـكله، ملبـسه، تعابير وجهه. وكذلك نوظف هذا النمط من التحديق حينما ندخل مكاناً لأول مرة، لأننا نريد استيعاب تفاصيل المكان. ونستخدم النظرة المتفحصة للتعبيـر عـن الأهواء أو الميول الشخصية. فقد وجد بعض الباحثين أن الناس ينظرون بـشكل أكثر إلى من يحبون. وكذلك الشخص الذي يكون في حاجة إلى شخص آخر فهو

ينظر إلى ذلك الشخص بشكل أطول[١٨]. وقد اتضح من واقع التجربة أن الشخص الذي يستغيث طالباً العون كلما نظر أكثر إلى من حوله وحدّق فيهم فإنه يتلقى المعونة بشكل إيجابي وبشكل أسرع[١٩]. ويتضح من تجربة أخرى أن باحثاً قام بإجراء المقابلة مع شخصين، وتعمد النظر إلى أحدهما نظرات فاحصة مطولة. وخلص الباحث إلى أن الشخص الذي خصه بالنظر المطول اعتقد أن الباحث يميل إليه أو يكن له شعوراً خاصاً[٢٠] .

ويحدث التحديق حينما نريد أن نقول شيئاً. فمثلاً إذا نظرت إلي النادل وأنت جالس في المطعم أو المقهى، فهذا يعنى أنك تريد أن تقول له شيئاً. وإذا كنت سائراً في ممر وأطلت التحديق في الشخص القادم نحوك، فهذا ربما يكون مؤشراً على أنك قد تكون على معرفة به، وأنك تريد أن تتوقف للتحدث معه، أو تكتفي بمجرد إلقاء التحية عليه. ويمكننا أن نتساءل هنا: هل يختلف التحديق باختلاف الحالة العاطفية ؟ طبيعي أننا ننظر بشكل مطول إلى الأشياء التي تكون محببة إلى نفوسنا، وإلى الأشياء التي تعتبر في نظرنا جميلة أو جذابة. فالرجل الذي يطيل التحديق في امرأة أو فتاه ما، ويقترن ذلك مع الابتسام فهو يحاول أن يرسل رسالة عاطفية إليها. وقد وجد بعض الباحثين أن درجات التحديق تكون أكثر مع مشاعر الحب والدفء والإعجاب، وتكون أقل مع مشاعر القلق والخضوع والكآبة [٢١]. أما حينما تنظر المرأة إلى الرجل بشكل مطول فإن ذلك يفسر تفسيراً عاطفياً. وقد قام أحد الباحثين بتجربة بأن طلب من امرأة إجراء مقابلة مع رجلين، وطلب منها أن تخص أحدهما بالنظرات المطولة أثناء فترة المقابلة بأكملها. وتم تسجيل ذلك على شريط فيديو. وقد اتفق كل من شاهد شريط التجربة أن المرأة أبدت ميلاً عاطفياً تجاه الرجل الذي كانت تنظر إليه في المقابلة بشكل مطول.

وهناك علاقة بين التحديق ونمط الشخصية. فالتحديق يكون أقل عند الانطوائيين والأطفال الخدج وأغلب حالات المرضى العقليين. بينما هو أكثر عند الناس البشوشين، والمنفتحين اجتماعياً ونفسياً على الآخرين، وكذلك من يمارسون وظائف تعطيهم صلاحية الهيمنة والحزم. أما في المواقف العادية فإن الناس الذين ينظرون أكثر يعتبرون لطيفين وجديرين بالثقة، وماهرين اجتماعياً.

وقد تم عمل فيلم قصير يحتوى على مواقف حوارية حيث يبدو المشاركون وهم ينظرون إلى بعضهم أحياناً بنسبة ١٥%، وأحياناً بنسبة ٨٠%. وحينما عرض الفيلم على بعض المشاهدين فقد أصدروا أحكامهم على المشاركين في الحوار من واقع طريقة النظر، وذلك على النحو التالي: (٢٢)

مدلول النظر بنسبة ١٥٪	مدلول النظر بنسبة ٨٠٪
بارد	لطيف
متشائم	واثق من نفسه
حذر	طبيعي
يتخذ موقفاً دفاعياً	ناضج
غير ناضج	مخلص
متحاش	مذعن
غير مكترث	حساس

يتضح من هذه التجربة أن معظم الناس يلاحظون الفرق بين ١٥% و ٨٠% من مستويات النظر. وهذا هو السبب الذي يجعلك تشعر بالضيق حينما ينظر إليك شخص غريب نظراً مطولاً. ويتحول هذا الشعور إلى الإحساس بالانزعاج والريبة إذا كان ذلك الشخص يرتدي نظارة شمسية زجاجها غامق، لأن النظارة تعطيه حماية وتجعله في وضع أقوى، فهو ينظر متى ما شاء ولأية فترة يشاء، بينما نحن لا نعلم مقدار النظر واتجاه النظر. ولذلك «***يكون نمط النظر في الأماكن العامة ملطفاً حتى لا يبدو الشخص وكأنه يحدق في الوجوه. ويكتفي الشخص بالنظرة الخاطفة، أي أنه ينظر إلى الآخر بما يشعره بوجوده، وأنه لا يشكل خطراً عليه، ثم يصرف النظر. إن صرف النظر في الأماكن العامة دلالة على السلوك المهذب***» (٢٣).

وإذا كان الشخص يقف في مكان عام بمفرده، محطة للحافلات مثلاً، ورأى مجموعة من الغرباء يسيرون مع بعض فيما يبدو أنهم شلة واحدة، فإن التحديق ومواصلة النظر إلى أفراد المجموعة قد يدل على التحدي، وقد يثير لديهم شعور

العداوة. وأقول ذلك من وحي التجربة الشخصية، فقد كنت ذات ليلة من شتاء ١٩٧٤عائداً إلى حيث أسكن في مدينة لندن. ولمحت مجموعة من الشباب الطائش يقفون عند مدخل محطة القطار التحت أرضى (قطار الأنفاق)، وكانوا ينهالون بالضرب على كل أجنبي ينظر إليهم ويخترقهم للدخول إلى المحطة. ولم يكن الهرب خطة سليمة بالنسبة لي، لأنه بإمكانهم أن يلحقوا بي، ولأن القطار الأخير سيفوتني. واصلت السير باعتدال وأنا أنظر إلى الأرض، وعندما اقتربت منهم لم اخترقهم (حتى لا أكون في وسطهم وأدخل ضمن نطاق مسافتهم الشخصية)، وانسللت ما بين جدار مدخل المحطة وخلف ظهر آخر واحد منهم دون أن أنظر إلى أحد منهم (ربما لشدة خوفي منهم). ودخلت المحطة دون أن يتعرض لي أحد بالضرب أو الإهانة اللفظية. والآن أستطيع تفسير ذلك. لقد كان سلوكي ينم عن التفادي وعدم التحرش[٢٤]، سواء من حيث طريقة المشي، أو احترام نطاق المسافة الشخصية، أو أسلوب النظر، وهذا ما يهمني التركيز عليه هنا في هذا السياق. إن تقليل فترة النظر في بعض الظروف، أو إتباع طريقة التحديق الجانبي يساعد على ضبط هيجان السلوك العدواني.

وقد حدث مرة شجار عنيف بين مجموعتين من الشباب في أحد أسواق الكويت بسبب «أسلوب النظر»، فقد كنت أنا موجوداً وشاهدت كل الشيء. وكل ما حصل أن مجموعة كانت تسير عكس المجموعة الأخرى، وفي لحظة عبور المجموعتين ببعضها وبدون مقدمات، توقف أحد أفراد المجموعة الأولى مخاطباً شخصاً من المجموعة الأخرى:

« اشفيك اتخز ؟ موعاجبك ؟ » [أي: لماذا تحملق ؟ شيء ما لا يعجبك ؟]. وتطور الأمر في لحظات سريعة إلى شجار رهيب شارك فيه جميع أفراد المجموعتين .

إن الشخص الذي لديه ميول عدوانية يمكن أن يتخذ مجرد النظر حجة أو ذريعة لممارسة عدوانه. روى لي أحد الأصدقاء أنه كان يسير في النهار في أحد الشوارع في بغداد في عام ١٩٦٩. وفجأة مر به شخص، وقبل أن يتعداه جذب

ذلك الشخص صديقي من يده قائلاً بعنف وحدّة: «اشبيك اتباوع ؟ انته مـنهم ؟» [أي: لماذا تحملق ؟ هل أنت منهم ؟] وقبل أن يسمع جـواب صـديقي، مـسكه بخناقه. وتجمهر الناس بسرعة، وأخذوا يشدونه ويلكزونه، وكـادوا أن ينهـالوا عليه بالضرب لأنهم فهموا أنه شيوعي. ولحسن الحظ فإن صديقي كان يحـتفظ بجوازه في جيبه، فنجح في وسط ذلك الهيجان أن يستخرجه ويرفعه وهو يصرخ بأعلى صوته: «يا جماعة أنا كويتي، وهذا جوازي. وقد جئت مع زوجتي لنزور أهلها في كرادة أم مريم». وفجأة ثاب الجميع إلى رشـدهم وأخـذوا يـرددون (خطيّة. خلوه يروح. هذا كويتي وزوجته عراقية) وعرفوا أنه لـيس شـيوعياً يستحق الضرب في الشارع العام !

في هذه الحالات الثلاث التي حصلت في بيئات مختلفة نجد أن أسلوب النظر هو الذي لعب دوراً بارزاً في تلك الأحداث، حيث إن الفترة الزمنية للنظر مـن حيث تعمد عدم الإطالة أو تعمد الإطالة هي التي كانت السبب فيما آلـت إليـه الأمور. ولا يستغرب أن يكون للتحديق في الأماكن العامة مثل هذه النتائج. يقول آرغايل إنه عندما تمت دراسة ظاهرة العنف في ملاعب كرة القدم في انجلترا، فقد تبين أن نظرة واحدة من أحد المشجعين إلى مشجعي الفريق الآخـر تكـون كفيلة بإثارة العنف. وستجدهم عند التحقيق يصرخون: إنه هو الذي نظر إلينا[٢٥].

وقد يحدث أن ينظر الرجل إلى المرأة نظرات مطولة، محـاولاً اصـطياد نظراتها أو لفت نظرها إليه، أي يحاول مغازلتها كما نعبر بالعامية. والقاعدة أن تهمل المرأة تلك النظرات، ولا تولي هذا الشخص أية أهمية، إذا أرادت ذلـك. ولكنها قد تنظر إليه مرة أو مرات، وتكون نظراتها جادة وغاضبة تهـدف إلـى ردعه. وهذا خيار ينطوي على شيء من المخاطرة، لأن الرجـل «الغـشيم» أو المتلهف قد يستنتج خطأ أن مجرد نظرتها إليه يعني موافقتها على تبادل النظرات معه كخطوة أولى. وإذا ترافق التحديق مع الغمز بالعين فهذه قمة الإثارة، ومـن أوضح درجات تحرش الرجل بالمرأة.

علاوة على ما سبق ذكره، فإن للتحديق دلائل نفسية:

أ) يعبر عن المصداقية، فقد ورد «أن الشاهد في المحكمة يبدو صدوقاً ويمكن الاعتماد على شهادته عندما لا يتفادى التحديق إلى القاضي الذي يستجوبه[٢٦].

ب) يعبر عن الهيمنة والنفوذ والتسلط. وحينما ننقل هذه الفكرة إلى شخص آخر نقول: انظر إلى عيني هذا المسئول وطريقة نظرته إلى المراجعين. يظهر بوضوح أنه متسلط، كريه، ولا يحب أن يعاون أحداً.

ج) يعبر عن المكانة الاجتماعية، حيث إن الناس بطبيعتهم ينظرون إلى الشخصيات المشهورة في المجتمع بشكل أطول. وهكذا، فالممثل والمطرب، والمذيعة التلفزيونية، والسياسي البارز، والوزير... وغيرهم من البارزين اجتماعياً ينالون نسبة أعلى من النظر عند رؤيتنا لهم.

د) يعبر عن المشاعر، حيث إن المرء ينظر مطولاً إلى الأشياء التي يحبها. وفي لحظات الهيجان العاطفي ينظر الرجل إلى المرأة نظراً مطولاً أو العكس. ونقول عن الشخص في مثل هذه الحالات (يرنو بعينيه)، وفي اللغة الإنجليزية يستخدم تعبير making eyes لنفس الغرض.

ويكون النظر أطول ونسبته أكثر في الحالات التي يلتمس فيها الإنسان شيئاً من شخص آخر، أو يتوسل إليه بشأن شيء ما. وفي مثل هذه الظروف يتداخل الجانب اللفظي مع الجانب غير اللفظي بشكل محكم، بحيث إن الألفاظ التي يتفوه بها الشخص تتجسد وتتضخم من خلال مقدار التحديق وشدة التعابير الوجهية، فتصبح الدلالة المقصودة نتيجة مشتركة للتعبير اللفظي والتعبير غير اللفظي المتمثل في التحديق وتعابير الوجه .

ه) يكون وسيلة لجلب المتعة والبهجة إلى النفس، وذلك مثل حالات النظر المطول إلى لوحة فنية راقية ومنظر طبيعي، ومشهد جميل. ونجد في سلوك عمر بن أبي ربيعة أنه كان يستمتع بالنظر إلى الجميلات:[٢٧]

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظّ لي فيه إلا متعة النظر

٣/٣/٤ النظر المتبادل

حينما يتم تبادل النظر بشكل متواصل فإن ذلك يعد مؤشراً لتقارب الشخصين، فهما قد يقبلان على بعضهما ويدخلان في طقوس المصافحة، أو يتوقفان لتبادل حديث باسم قصير. وإذا تم تبادل النظرات بين ذكر وأنثى مع تقليص المسافة بينهما، فإن ذلك يعتبر مؤشراً لموقف حميم. وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل.

ونحن نستعمل أحياناً تبادل النظرات للحصول على معلومات، أو لتأكيد صور ذهنية. فمثلاً قد يرى (أ) في الممشى شخصاً آخر هو (ب)، فينظر (أ) إلى (ب)، ويقوم (ب) بدوره بالنظر إلى (أ)، ويتم ذلك في لمحات سريعة. وهدف تبادل النظر في هذه الحالة رغبة أحد الطرفين أو كليهما في التأكد من شخصية الآخر، وما إذا كان ذلك الشخص يشبه (س) الذي يعرفه (أ) أو (ب). وقد وجد كارى Cary (1978b) في دراسة شملت ٨٠ طالباً و ٨٠ طالبة اختيروا بشكل عشوائي من إحدى الكليات الجامعية، أن الشخص الذي يريد أن يشرع في المحادثة مع شخص آخر لا يعرفه فإنه ينظر إليه أولاً. فإذا بادله ذلك الشخص النظر فإن المجال يكون مفتوحاً للشروع في الحديث. وإذا لم يكن هناك تبادل للنظر فهذا يعني أن احتمال الشروع في المحادثة غير موجود.

إن تبادل النظر قد تكون له دلالات أخرى وذلك على النحو التالي:

(أ) بين الذكر والذكر أو الأنثى والأنثى (الجنس الواحد). إذا كان الشخصان يعرفان بعضهما فإنهما يتبادلان النظر بشكل طبيعي وبدون تكلف. وحينما يلتقي صديقان بعد غيبة فإنهما يتبادلان النظر والعواطف الجياشة. أما إذا لم يكن الرجل يعرف الآخر فإن تبادل النظر ينم إما عن الاهتمام والرغبة في التعارف، أو عن معاني الريبة والشك. وإذا استمر تبادل النظر عندئذ فقد يدل على التحدي. وقد يحدث ذلك حينما ننظر مثلاً باستنكار إلى شاب طائش يأتي بتصرفات مستهجنة في مكان عام، فيقوم بدوره بمبادلتنا النظر تعبيراً عن روح التحدي. ونجد أن الشخصين اللذين تكون بينهما عداوة أو خصومة سابقة يتبادلان

نظرات الكراهية لفترة وجيزة، ثم يصرف كل منهما نظره عن الآخـــر. وقـد يحدث أن يتبادل شخصان النظر أثناء سيرهما متضادين في مكان عام ظناً منهما بأن أحدهما يعرف الآخر. وحينما يصلان إلى نقطة عبور أحدهما بالآخر وهما يواصلان تبادل النظر فإن أحد الطرفين قد يقوم بإلقاء السلام. وهدف إلقاء السلام في هذه الحالة تلطيف الجو والإعلان عن أن تلك النظرات لم تكن تنطوي على عدوانية أو ربما ازدراء. وحينما نكون في المطعم فإننا ننظر إلى الجرسون إذا أردنا شيئاً. فإذا لم يبادلنا النظر فإنه يعلن بذلك أنه لم يتفرغ لنا بعد.

(ب) بين الذكر والأنثى: يكون تبادل النظر بين أفراد الجنس المغـاير فـي الجانب الإيجابي مقترناً مع التأجج العاطفي والميل الوجداني. فحينما يلتقي ذكر وأنثى يرتبطان مع بعضهما بعلاقة حب فإنهما يتبادلان النظر طويلاً. ويقـال إن العشاق يتكلمون بعيونهم أكثر مما يتكلمون بألسنتهم. ولذلك فإن أيـام الخطوبـة وشهر العسل تكون حلوة حيث يقضي الخطيبان فترات طويلـة يتبـادلان فيهـا النظرات بقدر ما يتبادلان العبارات العذبة. إذن فالمواقف الحميمة جـداً تقتـرن بدرجات عالية من النظر والنظر المتبادل. ولكن هناك إلى جانب النظر عناصر أخرى يتم توظيفها في اللقاءات الحميمة وهى:

تبادل النظر
تقريب المسافة
مواضيع وأحاديث حميمة
الابتسام .....

ويرى بعض الباحثين النفسانيين[٢٨]، أن حذف أحد هذه العناصر سيؤدي إلى التركيز على العنصر الآخر لإيجاد نوع من التوازن بين العناصـر المرتبطـة بالمواقف الحميمة، فمثلاً إذا لم يتمكن الخطيبان من تقريب المسافة بينهما بسبب بعض الظروف المتعلقة بطبيعة المكان فإنهما يلجآن إلى تبادل النظر.

وإذا نظر الذكر إلى الأنثى بشغف وبادلته النظر، وتطور تبادل النظر إلـى تبادل الابتسام فهذا يعنى حصول نوع من الاستلطاف.

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(أحمد شوقي)

ويختلف نمط النظر بعد ذلك قليلاً بناء على التطور الإيجابي أو السلبي الذي يحصل بعدئذ.

وقد تتخذ الأنثى الغمز بالعين وسيلة من وسائل الإغراء. انظر كيف حبكت صاحبة عمر بن أبى ربيعة خطة للتحرش به في موسم الحج[٢٩]:

قالت لترب لها تحدثها لنفسدنّ الطواف في عمر
قومي تصديْ له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر

إنها تعرف نقطة ضعفه، فهو لا يقوى على مقاومة غمزة عين المليحة ذات الدلال .

ولكن ليس كل حالات الغمز بالعين ترتبط بالدلالات القبيحة. فقد يكون هناك غمز بالعين بين صديقين في أحد المواقف حينما يكون بينهما سر مشترك. وحينما يزور شخصان صديقهما المريض الراقد في المستشفى، ويقضيان فترة من الوقت وهما يتحدثان إليه، ويحس أحدهما بأن المريض بدأ يحس بالتعب، وأنه بحاجه إلى الراحة، فإنه يغمز لصديقه إيذاناً بالانصراف. وهناك مواقف ودية كثيرة نستخدم فيها هذه الحركة.

٤/٣/٤ عدم النظر

يعتبر عدم النظر سلوكاً غير لغوي أيضاً، يحمل دلالات لا يمكن أداؤها بغير ذلك النمط من السلوك. وهناك عدة أشكال ودرجات من عدم النظر، نوظفها في مناسبات مختلفة، وأخص منها بالذكر ما يلي:

(١) إسبال الجفنين، إذا حدث ذلك أثناء التخاطب فإنه يدل على التأمل في الكلام. ولا يستمر هذا الشيء عادة لفترة طويلة، وإلا اعتبر الشخص أنه قد سرح بتفكيره بعيداً عن موضوع الحديث. وحينما نخاطب الشخص الذي يشعر بالإعياء والتعب، أو بالضيق والحزن المؤثر فإنه يسبل جفنيه لبعض

الوقت. وكذلك نجد أن الشخص الذي يشعر بالذنب وأنه ارتكب خطأ فادحاً يسبل جفنيه أثناء التحقيق معه أو التحدث معه في موضوع الخطأ. ويعتقد الأمريكان أن العين تفضح، لأن الكاذب أو الشخص الذي يخفي شيئاً يبتعد بعينيه عن وجه محدثه. أما الشخص الذي يكون بإمكانه النظر إلى محدثه أثناء الاستجواب فهو شخص صادق. ولا يعني إسبال العينين إغماضهما، بل هو النظر إلى الأرض لتجنب وجه المتكلم وعينه. ولذلك فإن تعبير «أطرق بصره» يؤدي كذلك المعنى المقصود.

(٢) عدم النظر إلى وجه المتكلم، ويكون ذلك في بعض الحالات المرضية " فالأطفال التوحديون قليلاً ما ينظرون. إنهم في الواقع يخافون من تحديق النظر. ولذلك فإن تجنب النظر يعتبر معياراً مهماً للتشخيص. إن هؤلاء الأطفال ينظرون إلى الآخرين نظرة سريعة خاطفة من خلال أصابعهم غالباً، أو أنهم يتجنبون النظر كلية[٣٠]. وإذا كان النظر إلى الأشياء المحببة يقترن بالميل والانجذاب والنفس المنفتحة. فإن عدم النظر في حالات معينة يقترن بالجوانب السلبية. فقد وجد بعض الباحثين أن الخلافات الزوجية بين الزوجين تجعلهما ينظران إلى بعضهما بشكل أقل[٣١]. ووجد باحث آخر أن الشخص المسرور، المنفتح على الناس ينظر إلى الأشخاص والأشياء أكثر من الشخص الكئيب، المنطوي على نفسه[٣٢]. وعموماً فإن الشخص الذي يكره شخصاً آخر يتجنب النظر إلى وجهه. ولكن هذه القاعدة ليست عامه. تأمل أسلوب النظر الذي اتبعه عمر بن أبي ربيعة مع محبوبته حينما دخل حيها في وقت متأخر من الليل[٣٣]:

لما دخلت منحت طرفي غيرها عَمْداً، مخافة أن يُرى رَيْعُ الهوى

وكذلك مثل قوله أيضاً[٣٤]:

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

إنه أسلوب عدم تخصيص شخص بعينه بالنظر حينما يكون ذلك الشخص بين عدد من الناس، وذلك لعدم جذب انتباه الناس إليه وافتضاح أمره.

ونجد أن الشخص الذي يشعر بالحياء والخجل لا ينظر إلى وجه محدثه إلا بشكل خاطف ولفترة قصيرة جداً، ويبقى مطأطئ الرأس أغلب الوقت، وينظر إلى أشياء قريبة من محدثه، ولكن ليس إلى وجه المتحدث وعينه. وإذا اتبع الشخص هذا النمط من النظر أثناء إجراء المقابلة الشخصية معه فإن الانطباع الذي ينقله عن نفسه هو أنه شخص غير واثق من نفسه، وقد لا تكون شخصيته قوية. أما إذا أراد الشخص أن ينقل جانباً إيجابياً عن شخصيته أثناء المقابلات، فإنه يجب أن يظل قائم الرأس، منتصب الكتفين، ينظر في عيني المتحدث ووجهه ويديه بكل ثقة. ولا يكثر من استخدام حركات اليدين التي ترتفع عن مستوى الكتفين. ومن آداب العرب – كما ورد في الأثر – أن ينظر المرء إلى ضيفه أول ما يراه، فهذا دليل على احترامه له وترحيبه به. ثم أن يفسح له مجال الجلوس المريح. وأن ينصت له إذا ما تحدث، فإن ذلك دليل على المشاركة الوجدانية والاحترام كذلك. روي عن ابن عباس أنه قال: «لجليسي عليّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا تحدث»[٣٥].

قد ينظر الشخص بعيداً عن المتكلم إذا وجد صعوبة في فهم الكلام، أو إذا أخذ دوره في الحديث وهو مفعم بالعواطف الجياشة، فيتحدث وهو يكاد يبكي. وقد ينظر المتكلم بعيداً عن المخاطب حينما يحاول تذكر شيء، أو حينما يحاول التفكير في صياغة الجملة، أو البحث عن كلمة مناسبة. ويعتبر التوقف عن الكلام في هذه الحالة دليلاً على أن الشخص في حالة تفكير. لكن بعض المستمعين يلجأون في مثل هذه الحالات إلى النظر إلى الأسفل[٣٦].

وحينما يوجه المتكلم سؤالاً إلى المستمع ثم واصل المتكلم النظر بعد انتهاء صيغة السؤال فهذا يدل على أنه يلح في الحصول على جواب. أما إذا نظر بعيداً، فإنه يعطي المستمع بعض الوقت للتفكير. وقد ينظر المتكلم بعيداً عن المستمع إذا ابتسم له المستمع. وهدف عدم النظر في هذه الحالة هو «قطع» الابتسامة، أو تقليص تأثيرها العاطفي لمواصلة جدية الحديث، وخاصة في الموقف الذي يكون فيه المتكلم مسئولاً جاداً، والمستمع موظفاً مقصراً يتلقى التأنيب. وقد ينظر المستمع بعيداً عن المتكلم لبعض الوقت إذا كان في كلامه ما يضايق، أو كان صعب الفهم. ولكن إذا تعمد المستمع عدم النظر إلى المتكلم طوال الوقت فسيكون لذلك أثر ملحوظ. وبإمكانك أن تقوم بهذه التجربة لنفسك: لا تنظر إلى وجه محدثك إطلاقاً، بل انظر إلى يديه وكتفه ورجله، ولكن ليس إلى وجهه، ستجد أن محدثك سوف ينتبه حتما , هذا النمط الغريب من النظر، لأن الوضع الطبيعي هو أن ينظر الشخص في وجه محدثه.

(٣) غض النظر، يقال في اللغة العربية: غض الرجل صوته إذا خفضه، وغض بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى ما لا يجوز له التطلع إليه. وقد ورد غض البصر بأسلوب الأمر في قوله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور: ٣٠]. يقول ابن كثير في تفسيره (ج ٥ صـ ٨٥): «***هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم. فإن اتفق إن وقع بصره على محرم فليصرف بصره عنه***». ويدخل ذلك في ضبط سلوك العين. ومن التعاليم الإسلامية كذلك أن يعطى الإنسان الطريق حقه. وحق الطريق – كما ورد في الحديث النبوي – هو غضّ البصر. إن غض البصر في الشوارع والأسواق وأماكن التجمع العامة يشعر أفراد المجتمع بالاطمئنان والراحة، ويبعد عنهم الأذى الذي تسببه النظرات الشرهة أو المسمومة. كذلك فإن من

مظاهر السلوك الاجتماعي المتحضر أن نظهر الاحترام لبعضنا في الأماكن العامة. وغضّ النظر، أو ضبط سلوك العين، هو أولى خطوات هذا السلوك.

وعندما نقرأ قول عنترة بن شداد: (٣٧)

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

نجد أنه يكشف عن سلوك اجتماعي راق، وخلق حسن ربما نفتقده في كثير من مجتمعاتنا هذه الأيام.

ونجد أن الإنسان الوقور، ذا المكانة العلمية المرموقة، والأخلاق العالية يمارس غض البصر من الواقع الأخلاقي الممتزج بالقيم الرفيعة. وفي المقابل فإن مثل هذا الشخص لا يمكن إلا أن يعامل بمثل هذا النمط من النظر المتراخي، لما له من هيبة ومكانة بحيث أن المرء لا يجرؤ على التحديق في وجهه، بل يطرق بصره أثناء التحدث إليه. ونجد مثل هذه الصورة متمثلة في قول الفرزدق يمدح الإمام زين العابدين عليه السلام:(٣٨)

يُغْضي حياءً ويغضى من مهابته فما يكلَّمُ إلا حين يبتسمُ

ومن مظاهر غض البصر أن يطرق الإنسان ببصره إلى الأرض، وخاصة عند الشعور بالحياء أو الخجل أو الارتباك أو حينما يكون الموقف محرجاً. وكثيراً ما نقرأ في القصص تعابير مثل (فأطرقت رأسها إلى الأرض حياء).

يتضح من الشرح الذي قدمناه بشأن إسبال الجفنين، وغض النظر أن غض النظر عبارة عن نمط من السلوك الاجتماعي يعبر عن الجانب الأخلاقي أو الوازع الديني. أما إسبال الجفنين فهو وسيلة تعبيرية اختيارية نقصد من خلالها توصيل رسالة ما إلى الطرف الآخر. وهناك فرق جوهري آخر هو أن غض النظر يعني صرف النظر كلية عن المشهد. أما في حالة إسبال الجفنين فبإمكان الشخص معاودة النظر عند زوال السبب.

(٤) إغماض العينين، نلجأ إلى إغماض العينين، أو وضع اليد على العينين لحجب الرؤية حينما نرى منظراً مرعباً أو مشهداً مخيفاً. وكذلك نلجأ إلى إغماض العينين في لحظة التأمل وطلب الهدوء. انظر إلى منظر الأم التي يصرخ الأطفال حولها ويملأون البيت ضجيجاً وإزعاجاً. إنها لا تسد أذنيها، ولكنها تغلق عينيها لكي تنقطع للحظات عن مشهد الإزعاج.

(٥) الإشاحة بالوجه، حينما يبعد المستمع وجهه عن المتكلم أثناء الكلام فهذا يدل على أشد درجات الضيق أو التبرم أو الزعل. وقد يدل ذلك على عدم الارتياح تجاه المتحدث، أو عدم الرغبة في الاندماج معه في موضوع الحديث. وهنا أيضا حاول أن تقوم بهذه التجربة لنفسك. أدر وجهك بعيداً عن محدثك بحيث يتحدث وأنت تنظر إلى جانب آخر. ماذا سيكون رد فعل المتحدث؟ إنه سيلاحظ هذا الوضع الغريب، وسيسألك فوراً: ما بك؟ هل أنت متضايق من شيء؟ هل ورد في كلامي ما يجرحك ؟ إلى آخر ذلك من ملاحظات تنم عن أن عدم النظر يعتبر خروجاً عن المألوف ورسالة بحد ذاتها. وفي الحالات العاطفية قد يكون من الطبيعي أن يشيح الشخص بوجهه عنا لكي يبعد عنا تعابير وجهه التي يبدو فيها التأثر. فإذا كانت المستمعة أنثى والمتكلم ذكراً، وسمعت منه كلاماً مؤثراً أو جارحاً، فإنها تشيح بوجهها عنه إذا انفعلت انفعالاً شديداً بسبب الكلام، وأرادت أن تتخرط في البكاء. وكذلك فنحن نشيح بوجهنا حينما نشاهد شيئاً مقززاً في الطريق، أو منظراً مؤذياً، أو نصادف شخصاً بيننا وبينه عداوة شديدة أو بغضاء.

وعلاوة على ما سبق ذكره من دلالات تتعلق بعدم النظر، فإنه يمكننا أن نضيف أيضا أن تقليل النظر أو عدم النظر قد يكون أحياناً وسيلة لإخفاء المشاعر الداخلية وعدم إبرازها. وعلى هذا الأساس يمكن تفسير قول عمر بن أبى ربيعة[٣٩]:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

ويكون عدم النظر في بعض المواقف وسيلة لإبراز المشاعر السلبية على وجه الخصوص.

٥ ـ حركات الحاجبين

سبق أن ذكرنا خلال حديثنا عن أعضاء الوجه أن لمنطقة الحواجب قدرة محدودة في التعبير عن المشاعر وإظهار العواطف. ولذلك فسنتناول الجوانب المباشرة والمألوفة في هذا المجال .

إن تحريك الحاجبين خلال عملية التواصل يرتبط بعدة دلالات اعتماداً على سياق الاستعمال والأطراف المشاركة (فئاتهم العمرية، مستوياتهم الثقافية، درجة الألفة بينهم). فمثلاً إذا رفع المرء كلا الحاجبين فإن ذلك يدل على الاندهاش أو المفاجأة. ونقيض ذلك خفض الحاجبين الذي يكون مؤشراً على عدم الموافقة على الكلام أو الشك فيه. وفي المواقف العدائية فإن رفع الحاجبين مع التقدم نحو الطرف الآخر يدل على التحدي والعدوانية. وإذا رويت لمحدثك حكاية أو حادثة ورفع المستمع حاجبيه عند جملة معينة فهذا ربما يدل على أنك قلت له شيئا لا يصدقه أو يراه مستحيلاً. وضمن سياق آخر، نجد أن المستمع ينقل إلى المتحدث شعور الانبهار والإعجاب بكلامه بأن يرفع حاجبيه. ويتمثل ذلك أحيانا بتكرار تحريك الحاجبين. ويلاحظ أن كثيراً من الناس ينقلون شعور الإحساس بالمفاجأة من خلال رفع الحاجبين .

وحينما نتحدث عن مثل هذه الدلالات التعبيرية لحركات الحاجبين فلا يجب أن نغفل دور السياق في تحديد المعنى المراد والفكرة المقصودة. وعلاوة على عنصر السياق الذي يكون مهما في كيفية توظيف الحركة المناسبة (منظور المرسل)، وكذلك كيفية تفسير تلك الحركات (منظور المتلقي)، فإن هناك عنصراً آخر يتدخل في حدود استعمال بعض تلك الحركات، ألا وهو مقدار الألفة والتقارب والمعرفة ما بين المتكلم والمستمع. والوضع هنا يشبه ما هو موجود في اللغة المنطوقة، إذ بإمكانك أن تمازح صديقك الحميم بعبارات معينة، ولكنك

لا تستعمل تلك العبارات نفسها مع إمام المسجد أو رئيس مركز العمل، أو عميد الكلية الذي لا ترتبط به بنفس الدرجةُ من الصداقة والتقارب العاطفي .

ومن حركات الحاجبين التى تدخل ضمن هذه الدائرة من التحفظ في الاستعمال تلك التى يقصد بها إلقاء التحية والمداعبة وكذلك التقرب إلى الطرف الآخر. ومنها أيضا أن تقطب مابين حاجبيك، مع ابتسامه خفيفة، حينما يسرد لك صديقك مغامرة يزعم أنه قام بها. هذه الحركة تنقل له دلالة تعجبك مما يقول، مع رغبتك في عدم تكذيبه حثاً له على مواصلة الكلام .

٦ حركات الشفتين

١/٦ تقترن حركات الشفتين بتعابير الوجه عموماً، حيث إنّ الشفتين تتحكم بهما مجموعة من العضلات المرتبطة بعضلات الوجه. ولذلك فمن السهل أن تتخذ الشفتان مختلف الأشكال والأوضاع. ونظراً لهذه المرونة الهائلة التي تتمتع بها الشفتان فإنه بإمكانهما التعبير عن مختلف الحالات. أليس من السهل أن تعرف ما إذا كان الشخص مبتسماً أو مقطباً ؟ إننا نستخدم الشفتين لإظهار الابتسام أو التبرم، ولكن في واقع الحال نكون قد وظفنا مجموعة أخرى من عضلات الوجه، تكاد تبلغ ٨٠ عضلة. وحالة التقطيب كذلك تستدعى استخدام عضلات الجبهة إلى جانب عضلات الشفاه. أما فيما يتعلق بتوظيف حركات الشفتين كوسيلة تعبيرية، فلا نريد الدخول في تفاصيلها هنا، ولكن يكفى استكمالاً لموضوع الحديث أن نشير إلى أن الشفتين تتخذان خلال التحدث أو التحاور أشكالاً مختلفة، شأنها شأن حركات اليدين وهز الرأس، تعتبر بمثابة تغذية راجعة feedback، تخبر المتكلم بأننا معه ونتفق معه فيما يقول، ونطلب منه أن يواصل كلامه، أو على العكس من ذلك، تظهر التبرم والامتعاض .

ويمكن استخدام حركات الشفتين لوحدها، كوسيلة تعبيرية غير لفظية، أي بدون الكلام، لإبداء الاستحسان أو السرور، وغالبا ما يقترن ذلك بتحريك الرأس كذلك. وحينما نقوم بزمّ الشفتين فإن ذلك يقترن بالمشاعر السلبية، مثل الحزن أو الغضب أو التبرم. ومن عادة بعض الناس أن يقول كلمة (لا)، وخاصة في حالة

التذمر والضيق، من خلال حركات الشفتين: ويكون ذلك بزم الشفتين، وتطويح الرأس قليلاً إلى الخلف. ويلجأ بعض الشعوب إلى الإشارة بالشفتين إلى شيء عوضاً عن الإشارة بالإصبع. وهذا الشيء شائع عند قبائل سكان أمريكا الجنوبية الأصليين.

ويعتبر مط الشفة السفلى وسيلة للتهكم والاستهزاء بالشخص الآخر. وهي حركة تثير السخط والانزعاج. ويمكننا أن ننقل شعور المحبة من خلال «القبلة الهوائية»، ويكون ذلك بتدوير الشفتين وأداء القبلة في الهواء.

٢/٦ إن أهم حركة ترتبط بالشفتين هو الابتسامة. والابتسامة لغة عالمية، ولها أشكال كثيرة، ولكل شكل مدلوله. ونحن نقترح تصنيف تلك المدلولات ضمن ثلاث فئات :

(١) الدلالة الايجابية: تدل الابتسامة على الاستحسان والشعور بالسعادة والرضا. وتتمثل في انفراج الشفتين من خلال تحرك العضلات المحيطة بالفم، وكذلك تحرك عضلات ركني العينين .

(٢) الدلالة السلبية: تدل الابتسامة على الاستهانة والاستخفاف واللامبالاة وبلادة الذهن. وتتمثل في انفراج الشفتين قليلاً .

(٣) الدلالة المحايدة: وتكون في المواقف الرسمية، وتنقل شعور الترحيب، مثل ابتسامة موظفة الاستقبال، والمضيفة الجوية، والبائع. ومنها كذلك ابتسامة رئيسي الدولتين لكاميرات الصحفيين. وأيضا ابتسامة المجاملة. وتغلب على هذه الدلالة صفة الابتسامة المصطنعة إذ أنها تؤدى كجزء من واجب.

وتكون الابتسامة التى تدخل ضمن الفئة الأولى نتيجة كلام طيب أو فعل طيب. والسياق هو الذي يحدد ذلك. ولكن الأمر لا يخلو من الغموض في بعض الحالات النادرة. فمثلا قد يبتسم المستمع للمتحدث لينقل له شعور الرضا والإعجاب بالكلام الذي يسمعه. فإن هذا المتحدث ينتمي إلى بيئة ثقافية مختلفة عن بيئة المستمع، فإن هذا المتحدث قد يسيء فهم الدلالة الحسنة للابتسامة في مثل هذا السياق، ويعتقد خطأ أن هذا المستمع يسخر مما يسمعه .

وحينما تكون للابتسامة دلالة سلبية فإنها تثير الغضب أو ربما الميول العدوانية. فمثلاً حينما يكون الأستاذ أو المسئول في المؤسسة في موقف تعنيف شخص فإن تبسم هذا الشخص خلال فترة إنصاته للكلام قد ينقل شعور الاستخفاف، ومن ثم قد يثير غضب المتحدث .

ومن المهم أن ندرك أن للابتسامة تأثيراً بالغاً في عملية التواصل، وخاصة إذا كانت الابتسامة نابعة من القلب. ولذلك نجد أن الرسولﷺ قد اعتبر الابتسامة نوعا من الصدقة: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»(٤٠)، لأن التبسم ينقل شعور المودة وانشراح الصدر. فهذا الحديث دعوة لإشاعة روح المودة بين أفراد المجتمع. وتقتضي اللباقة والحنكة أن نعرف اللحظة المناسبة للابتسام فنوظف الابتسامة كجزء من استراتيجية توصيل الرسالة اللغوية والمشاعر بجوانبها الإيجابية والسلبية. بل إنه يمكن التلفظ بعبارة شديدة الوطء أو تنطوي على شيء من قلة الأدب، وتغليف ذلك بابتسامة غير مصطنعة، وستساهم الابتسامة عندئذ في إضفاء سياق جديد يؤدي إلى تلطيف قسوة العبارة، وتخفيف تأثيرها السلبي، أو ربما إلغاء الدلالة الأصلية كلية .

هل بإمكاننا أن نقول إن الابتسام حركة عالمية لا يخطئ مدلولها أحد ؟ هذا صحيح من حيث الدلالة المباشرة، لأن الابتسامة لغة يجيدها الجميع. ولكن تبقى هناك تفاصيل كثيرة، فعلاوة على أنه يجب أن نتعلم متى نبتسم ومتى لا نبتسم فإن لكل شخص أسلوبه في الابتسام، فهناك من تنفتح شفتاه عند الابتسام، وهناك من يبتسم وشفتاه مطبقتان، علاوة على أن لكل ابتسامه معناها، كما ذكرنا فيما مضى. ونحن نفهم في الغالب دلالات الابتسام من واقع سياق الأحداث. وإلا فمن يستطيع أن يفسر تفسيراً دقيقاً معنى ابتسامة موناليزا ؟ لقد اختلف النقاد في تفسير تلك الابتسامة بسبب غياب سياق الحال الذي يمكن التعويل عليه في التفسير الصحيح. فمنهم من ذهب إلى أنها تدل على السعادة أو الشعور بالقناعة والرضا. وذهب البعض الآخر إلى أنها تدل على الحزن الدفين. وذهب فريق ثالث إلى أنها ابتسامة محايدة ؛ يفسرها الرائي حسب حالته النفسية .

خاتمـــة

يدخل هذا البحـــث فـــي مجـــال الاتـــصال غيـــر اللفظـــي nonverbal communication وهو التواصل باستعمال قنوات تعبيرية تتمثل في الحركات والإيماءات، وطريقة النظر، والمسافة الشخصية، وطريقة الجلوس والوقـــوف، واللباس وما يتعلق به من مكملات. وتكمن أهمية هذه القنوات التعبيرية في أنها تشكل جزءاً مهماً من الرسالة التي يريد المرسل أن ينقلها إلى المتلقي .

وقد ركز البحث على الدلالة التعبيرية لحركات الوجه والعينـــين والـــشفتين والحواجب في سياق الاتصال، وقدم الباحث وصفاً تحليليا لدلالات تلك الحركات، مدعماً ببعض الاستشهادات، وبسرد بعض المشاهد المستمدة من واقع التجربـــة الحياتية بهدف بيان ما لبعض الحركات من زخم تعبيري خـــاص فـــي الثقافـــة العربية أو الوجدان الشعبي .

وقد اتضح من خلال السرد أن هذه المكونات تتفاوت من حيث القـــدرة على التعبير عن المشاعر والعواطف، ولذلك فقد اختلف أسلوب التنـــاول بمـــا يناسب مقدار مساهمة كل عضو في التعبير. وكان الهدف فـــي النهايـــة تقـــديم صورة متكاملة عن الفكرة تضم تلك المكونات الأربعة، وتكون نـــواة لأبحـــاث مستقبلية .

الهوامـــش

١- انظر ((Ekman and Friesen 1981:76.

٢- يعتمد هذا الأسلوب على أساس تعيين أو تحديد فئات أو مجموعات من العواطف التي أثبتت الدراسات أنها تظهر على الوجوه في مختلف الثقافات والجدير بالذكر أن إكمان وزملاءه ينتقدون وصف تعابير الوجه على الأساس العضلي، فيذكرون أنه من الصعب أن نقرر أية عضلة تحركت وذلك بمجرد النظر إلى الوجه. وقد سبق أن توصلت إلى هذه الملاحظة بشكل مستقل إثر قراءتي لبحث سيفورد السابق الذكر.

٣- انطلاقاً من هذا الاستنتاج، يمكننا القول إن التعبير العربي المألوف (يقدح الشرر من عينيه) وكذلك التعبير الآخر (يريه العين الحمراء) يدلان على الغضب من المنظور البلاغي وليس من المنظور الحقيقي الواقعي .

٤- انظر التفاصيل ذلك Wiliams & Tolch (١٩٦٥) P. ١٨

٥- أنظر في ذلك Ekman & Friesen(1978) .

٦- هناك ملاحظات مفيدة حول نظام تشفير سلوك الوجه أوردها Sayette وزملاؤه في بحثهم الذي تناولوا فيه تقييم النظام من منظر القياس السيكولوجي. راجع. Sayette et al (2001)

٧- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (البر والصلة والآداب) باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، المجلد ١٦، ص ١٧٧، رقم الحديث ٢٦٢٦ .

٨- ديوان جرير، تحقيق د/ نعمان محمد طه، المجلد الأول ص ١٦٣، دار المعارف، مصر، ط ٣ ؛ ١٩٨٦ .

٩- ديوان بدر شاكر السياب، ص ٤٧٤، دار العودة: بيروت ١٩٨٩ .

١٠- انظر الحيوان «للجاحظ» ج ١ ص ٣٤.

١١- أنظر (1988: 160) Argyle.

١٢- المرجع السابق ص ١٥٩.

١٣- لتفاصيل أكثر حول هذه الفكرة راجع (١٩٦٧) Kendon .

١٤- أنظر المرجع السابق .

١٥- انظر (٢٩: ١٩٧٦) Argyle and Cook .
وقد ظهرت الطبعة الأولي من الكتاب في سنة ١٩٧٦، وأحدث تأثيراً ملحوظاً في الدراسات المتعلقة بتوظيف النظر والتحديق المتبادل. وربما تكون بعض هذه العادات

التي نقلتها عنهما قد طرأ عليها شيء من التغيير نتيجة للتغير الاجتماعي الطبيعي. علاوة على أن إدخال عنصر السياق سيضطرنا إلى إعادة الصياغة حتمـــاً. فمثلاً ما ذكره الكاتبان بالنسبة للنظر عند العرب لا يمكن أن يكون صادقاً إلا في ظروف محدودة، لا مجال لذكرها هنا .

١٦- ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٤٥، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٨ .

١٧- أنظر في ذلك (١٩٦٣) Goffman صـــ ٨٤.

١٨- انظر (١٩٨١ :٢٨٣) et al. Argyle

١٩- راجع (١٩٨٨ :١٦١) Argyle

٢٠- المرجع السابق صـــ ٢٨٤ .

٢١- راجع (١٩٨٦ :٨٠) Kleinke .
والمراجع المذكورة هناك .

٢٢- أنظر (١٩٨٨ :١٦٧) Argyle .

٢٣- المرجع السابق صـــ ١٦٢ .

٢٤- يدلك هذا على أن شعور الخوف لدى الكائن الحي يعمل على إيقاظ "سلوك التفادي" لديه.

٢٥- المرجع السابق صـــ ١٦٥ .

٢٦- انظر للتفاصيل (١٩٨٦ :٨١) Kleinke .

٢٧- الديوان ص ٢١٢.

٢٨- انظر مثلاً (١٩٧٦) Argyle and Cook صـــ ٦٥

٢٩- الديوان ص١٦٨.

٣٠- راجع (١٩٨٣ :٢٥) Marshall .

٣١- انظر في ذلك (١٩٨٨ :١٦٢) Argyle

٣٢- انظر مثلاً دراسة موبز (١٩٦٨) Mobbes .

٣٣- الديوان ص١٧.

٣٤- الديوان ص ١٢٦.

٣٥- أحمد الهاشمي (١٩٧٨) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب. دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

٣٦- كانت من عادة أستاذنا ديفيد بنت Bennett (الأستاذ في جامعة لندن) أن ينظر إلى الأسفل حينما يستمع إلى سؤال أو تعليق. أما أستاذنا نيل سميث فإنه كان أثناء استماعه إلى السؤال يتمشى جيئة وذهاباً جهة طاولته، وعينه على الأرض، ويده اليسرى مكتوفة تحت اليمنى، بينما اليمنى تسمك بالطباشيرة التى كان يضعها بين أسنانه طيلة وقت استماعه للسؤال. ويدلك كل هذا على أن الناس يتبعون أنماطاً متعددة من عدم النظر أثناء التفكير أو التأمل في الكلام .

٣٧- ديوان عنترة، ص ٧٥، بتحقيق خليل شرف الدين . دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٣٨- ديوان الفرزدق، ج ٢ ص ٣٥٤. دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٨٣.

٣٩- الديوان ص٣١١.

٤٠- الأدب المفرد للبخاري، باب من هدى زقاً أو طريقاً، ص٣١١، رقم الحديث ٨٩١.

المراجـــع

أ- العربيـــة

- الأدب المفرد للبخاري، دار الصديق: المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ٢٠٠٠.
- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، دار الجيل: بيروت ١٩٨٨.
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان ١٩٧٨.
- ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة: بيروت ١٩٨٩ .
- ديوان جرير: جرير بن عطية بن حذيفة الحظفي بن الكلبي اليربوعي، تحقيق د. نعمان محمد طه، دار المعارض: مصر، ط٣؛ ١٩٨٦.
- ديوان عمر أبي ربيعة، دار ربيعة للطباعة والنشر: لبنان ١٩٧٨.
- ديوان عنترة، تحقيق خليل شرف الدين، دار وكتبة الهلال: مـــصر، الطبعـــة الأولـــى ١٩٨٨.
- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الريان للتراث: مصر ١٩٧٨.

ب- الأجنبيـــــة

- Argyle, M. (1988) ***Bodily Communication***. Methuen & Co. Ltd., London.
- Argyle, M., and Cook, M. (1976) ***Gaze and mutual gaze.*** Cambridge: Cambridge University Press
- Argyle, M., Ingham, R., Alkema, F., and Mc Callin, M. (1981) The Different Functions of Gaze. In: Kendon (ed.) (1981).
- Cary, M.S. (1978 a) Does Civil Inattention Exist in Pedestrian Passing? ***Journal of Personality and Social Psychology, 36***, pp. 1185-1195.
- Cary, M.S. (1978 b) The Role of Gaze in the Initiation of Conversation. ***Social Psychology Quarterly, 41***, pp. 269 – 271.
- Cline, M. (1956) The Influence of Social Context of the Perception of Faces. ***Journal of Personality, 25***, pp.142 – 158.
- Ekman, P., and Friesen, W. (1971) Constants Across Cultures in the Face and Emotion. ***Journal of Personality and Social Psychology, 17***, pp. 124 – 129.
- Ekman, P., Friesen, W., and Tomkins, S. (1971) Facial Affect Scoring Technique: A First Validity Study. ***Semiotica, 3***, pp. 37-58.
- Ekman, P., and Friesen, W. (1978) ***Facial action coding system.*** Palto Alto: Consulting Psychology Press.
- Ekman, P., and Friesen, W. (1981) The Repertoire of Nonverbal Behavior: categories, origins, usage, and coding.
- In: Adam Kendon (ed) (1981).
- Goffman, E. (1963) ***Behavior in Public Places***. New York: Free Press.
- Kendon, A. (1967) Some Function of Gaze Direction in Social Interaction. ***Acta Psychological, 26***,pp. 22 – 63.
- Kendon, A. (ed) (1981) ***Nonverbal Communication, Interaction and Gesture.*** Mouton: The Hague.
- Kleinke, C.L. (1986) Gaze and Eye Contact: A Research Review. ***Psychological Bulletin, 100***, pp. 78 – 100.
- Marshall, E. (1983) ***Eye language: Understanding the Eloquent Eye***. New Trend: New York.

- Mobbes, N.A. (1968) Eye-contact in relation to social introversion-extraversion. ***Brit. J.Soc.Clin.Psychol.* 7,** pp.305-306.

- Sayett, Michael A., Cohn, Jeffrey F., Wertz, Joan M., Perrott, Michael, A., & Parrott, Dominic J. (2001) A Psychometric Evaluation of the Facial Action Coding System for Assessing Spontaneous Behavior. ***Journal of Nonverbal Behavior, 25***, pp. 167-186.

- Seaford, H. W. (1981) Maximizing Replicability in Describing Facial Behavior. In: A. Kendon (ed) (1981). Pp. 165 – 195.

- Williams, F., and Tolch, J. (1965) Communication by Facial Expression. ***Journal of Communication, 15***, pp. 17 – 27.